المبعوثون المصريون إلى فرنسا
وبناء الدولة الحديثة خلال عصر محمد علي

يشكل القرن التاسع عشر في مصر المجال المعرفي الذي اختلفت حول أحداثه وتطوراته مجموعة كبيرة من الدراسات العلمية والفكرية، ويرجع هذا التنوع في القراءة والتناول إلي غني المرحلة التاريخية من ناحية التحولات العديدة، ولكونها تشكل نقطة التماس والاتصال مع الأخر، حيث سمحت وسائل الاتصال والتواصل لمصر بالتعرف على التجارب الأوروبية في مجالات متعددة عن طريق اتصالها بأوروبا من خلال الحملة الفرنسية ومن خلال تجربة يصطلح على تسميتها بالإصلاح أو التحديث، وقد كانت البعثات إلى فرنسا هي سلاحها الأول.

فقد كانت البعثات التي أرسلها محمد علي إلى أوروبا البنية الأساسية الوطنية التي أسس عليها بنيان عمليات التحديث التي قامت في مصر خلال القرن التاسع عشر([1])، حيث قلبت إدارة محمد علي الآية كما يقال، فلم يكن الرحالة والمبشرون هم الذين مهدوا للتغيير في أرض مصر، بل جاء ذلك وبصورة أساسية من أفواج المبعوثين من شباب مصر الذين أوفدوا إلى قلب أوروبا، ونهلوا من العلوم والأفكار الحديثة، وكانت البعثات هي الجهاز الرئيسي الذي استخدمته مصر بإيقاع سريع لكي تتجمع على أرضها ثمار الثورة الصناعية الغربية، وكذلك الأفكار السياسية والاجتماعية وليدة الثورات الأوربية، وأسلوب الحياة، وأنماط السلوك الخاصة بالمجتمعات الحديثة في أوروبا([2])، وتسعي هذه الدراسة لتحليل الدور الذي لعبه هؤلاء المبعوثين في بناء الدولة الحديثة، وفهم كيف وظفتهم الدولة في تحقيق أهدافها؟ ولعل الإجابة على هذه الأسئلة تمكننا من الرد على الإشكالية المطروحة من قبل بعض الباحثين حول رؤيتهم لتجربة محمد علي بأنها تجربة فردية سعي خلالها الرجل لخلق كيان سياسي خدمة لأهدافه الشخصية محاولين طمس وأختزل مجهودات الرجل في هذه المقولة، وأنه لم يسعى من وراء تطوير أدوات العمل في مصر إلا خدمة لهدفه الأساسي وهو حكم مصر له ولأسرته من بعده؟ على العموم فإذا كانت تجربة محمد علي الاقتصادية قد تحطمت باتفاقية بلطة ليمان في عام1254هـ/ 1838م، وإذا كانت طموحاته السياسية قد أجهضت باتفاقية لندن في عام1257هـ/1841م فماذا بقي من تجربة محمد علي؟، وليس ثمة شك في أن أفضل ما بقي تجربة محمد علي باشا كان تلك العقول المفكرة الذين أرسلوا إلى أوروبا وتعلموا من أجل خلق نهضة علمية في مصر، والذين سوف يمتد أثرهم بشكل واضح خلال عصر إسماعيل وربما حتى وقتنا الحاضر.

كان الباشا قد شعر منذ الوهلة الأولى لتوليه مهام الحكم في البلاد بحاجته نحو الاتجاه نحو الغرب الأوربي من أجل إعادة بناء المجتمع العسكري والمدني على النمط الحديث، ومن أجل إعداد إدارة جديدة تستطيع القيام بمهام هذا البناء سواء على المستوى الصحي أو العسكري، فكان الباشا في حاجة إلى موظفين إداريين حازمين يفهمون رغبته في الإصلاح ويقدرون حالة البلاد وحاجتها ويلمون إلماماً تاماً بنواحي التقدم الغربي التي يراد اقتباسها، وقد اتجه بخاصة نحو الأمم ذات العلاقات القوية مع مصر، فكانت البعثات الأولى إلى إيطاليا ثم إلى فرنسا، ولما كان الباشا في حاجة إلى أدوات عمل سريعة لتطوير العمل في أجهزة إدارته فقد استدعى من الأوروبيين ما تحتاج إليه حكومته في القيام على المنشآت التي استحدثها كالجيش والأسطول والمستشفيات والمصانع والمدارس([3])، ولكن الباشا كان يدرك منذ اللحظة الأولى أن الإكثار من الأجانب في خدمة الحكومة ليس من الصواب في شيء، فكثير منهم على كفايتهم في النظم الحربية والاقتصادية يجهلون أغراض الحكومة، وقد يعرقلون أعمالها عن قصد أو غير قصد، ويجهلون أيضاً ما تحتاجه بلاد ناشئة كمصر من تلك النظم الحربية والاقتصادية، وقد يرجع هذا إلى جهلهم بلغة البلاد وعادات أهلها وطباعهم، كما كان الباشا لا يثق في كثير منهم، ويرى أنهم يعملون لمصلحتهم الذاتية قبل أن يعملوا لمصلحة الدولة التي تنفق عليهم، وأنهم يروجون لبعضهم البعض، كما أن النفقات الطائلة التي تنفق على هؤلاء الأجانب سواء رواتبهم أو في

وجود مترجمين لعدد كبير منهم، حيث كانوا في جلهم يجهلون اللغة العربية مما يمثل عائقاً أمام التوسع في استخدامهم في الإدارة المصرية ([4])، وأمام ذلك فقد فكر الباشا في إيفاد مبعوثين إلى أوروبا لتعلم ونقل علوم الغرب، وعلينا أن نسعي لتحليل أهداف الباشا من القيام بهذا المشروع الفريد في وقت مبكر والذي يدل على بعد نظره، وإدراكه لاحتياجات البلاد في المرحلة القادمة.

أهداف الإدارة المصرية من إرسال البعثات إلى فرنسا:

أرسل محمد علي أولي البعثات إلي أوروبا بعد أربعة أعوام فقط من ذلك اليوم الذي قبل فيه أن يتولى السلطة كوالي على مصر، ففي عام1224هـ/1809 سافرت البعثة الأولى إلى إيطاليا لدراسة العلوم العسكرية وبناء السفن والطباعة وفنون الهندسة، فقد عاصر محمد علي الوجود الفرنسي في مصر، وشاهد الفرنسيون في الإسكندرية، ونقل إليه علماء الديوان انطباعاتهم عن التقدم الذي أحرزه الفرنسيين، ولا شك أنه أدرك كما أدرك كل المصريين خلال هذه الفترة الفجوة الكبيرة بين الانضباط في صفوف الجنود الفرنسيين، ومدي التقدم في العلمي الذي أحرزه الفرنسيين، لذلك فلم يجد محمد علي رفضاً في فكرة إرسال المبعوثين من الطلاب إلي أوروبا بل على العكس فقد رحب الشيخ حسن العطار بتلك الأفكار وكان من بين أقوله المأثورة " أن بلادنا لابد أن تتغير أحوالها ويتجدد بها من المعارف ما ليس فيها"([5]) ورشح رفاعة الطهطاوي للسفر ضمن البعثة التي سافرت لفرنسا عام1242هـ/1826م، ويعكس ذلك في الواقع القبول المجتمعي لفكرة ضرورة تغيير، فقد أدركت النخبة المصرية في ذلك الوقت حجم الفجوة بين مصر وفرنسا في العلوم التطبيقية أو بالأحرى الفنون والصنائع، لذلك فقد كان لابد من كسر هذه الفجوة عن طريق البعثات لتعلم تلك الفنون، لذلك فقد كان واضحاً أن الإدارة خلال هذه الفترة حددت عدد من الأهداف لتحقيقها من خلال هذه البعثات وهي:

أولاً: كان محمد علي يهدف من خلال إرسال هذه البعثات إلى أوروبا لتكوين جيل جديد من الأساتذة والعلماء والفنيين الذين تلقوا العلم في أوروبا ووقفوا على أهم ما أنجزه الغرب الأوربي في العلوم والمعرفة ليحلوا عند عودتهم محل الأساتذة والأطباء والمهندسين والضباط الأجانب([6]). ففور عودة هؤلاء المبعوثين سوف يشغلون المناصب الكبرى في كل مؤسسات الدولة وإداراتها، بل هم من سوف يعملون على تنظيم الجهاز الإداري للدولة في عام1252هـ/1836م، ففي هذا العام كون محمد على لجنة لتنظيم إدارة الدولة محمد علي فأصدر محمد علي القانون الأساسي لتنظيم العلاقات بين الدوائر الحكومية واختصاصاتها وتم تكوين دواوين لكل فرع من أعمال الحكومة([7])

وأفضل مثال على ذلك هو قيام الباشا بإعادة افتتاح مدرسة المهندسخانة في بولاق عام 1250هـ/1834م بعد عودة البعثة الكبرى من فرنسا، حيث عين أرتين تشراكيان وكيلاً لها، ثم تولي يوسف الأرمني إدارتها، وهما من تلاميذ بعثة1242ه/1826م إلي فرنسا([8]).

ثانياً: أن يكون أعضاء هذه البعثات أداة صالحة لنقل علوم الغرب وفنونه، وليس أدل على ذلك من حرص محمد علي على أن يقوم كل تلميذ من تلاميذ البعثات بترجمة الكتب التي كان يدرسها من اللغة الفرنسية أو الإيطالية إلى اللغة العربية([9])، كما ألزم العائدين من البعثات بشراء وتجميع أكبر قدر من الكتب المهمة التي تعالج تخصص كلٍ منهم، وفور وصولهم إلى مصر كان الباشا يلزمهم بترجمة أهم الكتب التي تفيد في نشر ومعرفة تخصص كلٍ منهم ([10])، يكفي أن نشير هنا إلى أن عثمان نور الدين – وهو أول مبعوث مصري إلى فرنسا – كان ساعد الحكومة الأيمن في ترجمة الكتب، فقد خصص له قصر إسماعيل بن محمد علي في بولاق، وألحق به بعض المترجمين ليترجموا كتب الفنون البحرية والحربية"([11])، فقد أنهمك أغلب المبعوثين في عمليات الترجمة منذ وطأة أقدامهم فرنسا، فقد كانت مصر في حاجة ماسة لترجمة الكتب التي تدرس في المدارس الفرنسية من أجل إيجاد كتب منهجية موحدة للطلاب في المدارس في مصر، لذلك فلم يكن من الغريب أن يطلق أحمد عزت عبد الكريم على عصر محمد علي عصر الترجمة والتعريب([12]).

ثالثاً: أراد الباشا من إرسال البعثات إلى أوروبا تكوين جيش مصري قوي، حيث كان الباشا يدرك جيداً مخاطر الاعتماد على ضباط من المرتزقة الغربيين فقد رأى ضرورة وجود ضباط

محليين يمكنه الاعتماد عليهم بكل ثقة، ورأى ضرورة إيفاد هؤلاء الضباط والفنيين إلى أوروبا للوقوف على أحدث ما وصلت إليه العسكرية الغربية سواء في عمليات تصنيع السلاح أو حتى في ‘دارة المعارك العسكرية ([13])، ومن أجل ذلك فقد تخصص إحدى عشر طالب من أعضاء البعثة الكبرى إلى فرنسا في سنة1242هـ/1826م من بين 32 طالباً نعرف تخصصاتهم، أي حوالي 28% من أعضاء هذه البعثة البالغ عددها 39 طالباً([14])، وهو ما يعكس رغبة أكيدة من محمد علي في تطوير أداته العسكرية من أجل توسيع نطاق حكمه([15])، والواقع أن هذه البعثات كانت تستهدف أساساً تزويد الوالي بالكوادر اللازمة ليس للجيش فحسب، بل للدولة أيضاً، وذلك في مجال عملية التحديث الإداري والاقتصادي والصناعي، وقد ظلت هذه الرغبة قائمة لدى الباشا بخاصة بعد فترة من التذبذب في العلاقات مع أوروبا بين عاني1253-1259ه/1837 - 1843 م، فكان جوهر بعثة الأنجال التي أُرسلت في سنة 1260هـ/1848م يستهدف في الأساس تقوية كوادر الجيش، وهو هدف له في المقام الأول في أعقاب معاهدة لندن عام1256ه/1840م ومناورات القوى الأوروبية التي زادت من مخاوف محمد علي باشا وارتيابه بالنسبة للأجانب بخاصة داخل المؤسسة العسكرية([16])، لذلك فقد كان من بين 72 مبعوث كانت تتكون منهم هذه البعثة كان 48 مبعوث في دراسة العلوم والفنون الحربية أي 66% من طلاب هذه البعثة([17]). إن أهمية هذا الهدف لدى الباشا سوف ينعكس بصورة واضحة على أهم المترجمات التي سوف يقوم بها رجاله، حيث ستنصب في جزء كبير منها على العلوم العسكرية والصناعات الحربية([18]).

رابعاً: تحديث الطب في القطر المصري كله، ذلك أن مسألة صغر الحجم السكاني لمصر كانت تؤرق الوالي دائماً، فقد كانت مشروعاته الطموحة تحتاج إلى أعداد سكانية ضخمة وشباب أصحاء للتجنيد، وللعمل في المصانع التي تنشئها الدولة([19])، وكانت البلاد تمر بين الآن والآخر بمجوعة من الأوبئة المزمنة التي كانت تقضي على أعداد كبيرة من السكان ، وكان لابد من عملية واسعة النطاق لتحديث الطب في مصر، ومنذ البداية شغل مجال تطوير الطب والعلاج حيز كبير فيفكر الوالي لتحديث الدولة، فاستدعى الباشا عدد من الأطباء الأوربيين لهذه المهمة([20])، ولكن الباشا كان يدرك أن هؤلاء الأوربيين القادمين إلى مصر في جلهم كانوا من الجهلاء أدعياء العلم، ويعلق مسيو هامون Homant ناظر مدرسة الطب البيطري على الأطباء الأجانب الذين استخدموا في الإدارة الصحية في أول إنشائها فيقول "إن منهم من كان ممرضاً أو عامل تلغراف أو صانع أحذية في مرسيليا، وأن ثلثي أولئك الأطباء لا يحملون دبلومات، وأن من بين مائة صيدلي يوجد عشرة فقط كانوا حائزين للدبلومات، وإذا هبط أوروبي مصر وليس له حرفة يحترفها سرعان ما يعين صيدلياً أو طبيباً ([21])، أمام ذلك لم يكن أمام الباشا لإرساء حجر الأساس لمدرسة الطب في مصر إلا إرسال البعثات إلى أوروبا، فرغم مجهودات كلوت بك الدءوبة، وقيامه بترجمة قانون الطب الفرنسي إلى العربية، إلا أن البعثة الطبية الكبرى التي أرسلت إلى فرنسا عام1248ه/ 1832 والتي ضمت إثنى عشر طالباً كانت النواة الرئيسية لمدرسة الطب في مصر ([22])، وسوف يتضح أثر اهتمام الدولة بتحديث العملية الطبية في مصر من خلال اهتمامها الواضح بترجمة مؤلفات الطب الحديثة في أوروبا.

التحول في البعثات من إيطاليا إلي فرنسا:

فتح محمد علي الطريق إلى البعثات بعد أربعة سنوات فقط من توليه مقاليد الحكم في مصر، ففي عام1224هـ/1809م سافرت لبعثة المصري الأولى إلى إيطاليا لدراسة العلوم العسكرية وبناء السفن والطباعة وفنون الهندسة ([23])، وكان اختيار إيطاليا كأول دولة أوربية يرسل إليها الباشا بالبعثات يعود إلى العلاقات التجارية القوية التي كانت تربط مصر بالمدن الإيطالية منذ أزمنة موغلة في القدم، فهذه العلاقات جعلت الجالية الإيطالية أكبر الجاليات الأوربية في مصر، وأكثرها تأثيراً في التراث الثقافي المصري، فكانت اللغة الإيطالية هي اللغة الأكثر انتشاراً في مصر، بل لقد كانت لغة المخاطبات الرسمية بين القنصليات غير الإيطالية والإدارة المصرية، وكان عدد ليس بالقليل من الإيطاليين يجيدون اللغة العربية، كما كان عدد من أهالي الثغور المصرية - وخاصة الإسكندرية - يجيدون اللغة الإيطالية ([24]).

وكان الإيطاليين أول من أدخلوا إلى مصر الأدوات العسكرية الحديثة في جيش علي بك الكبير، لذلك فلم يكن من المستغرب أن تدرس اللغة الإيطالية في مدرستي بولاق والقصر العيني ثم في مدرسة المهندسخانة منذ نشأتهم ([25])، ولم يكن من العجيب أن كتاب ميكافلي "الأمير" كان من بين الكتب التي ترجمت في وقت مبكر من حكم محمد علي، وكان من اللبنات التي أثرت في فكر وعقل الباشا نفسه([26])، وكان الفرنسيين يحقدون على الإيطاليين تفوقهم الثقافي والمالي في مصر، ويمكن تبين ذلك من رسالة الجنرال بواييه Boyer رئيس أول بعثة حربية فرنسية يستقدمها محمد علي في أعقاب انهيار الإمبراطورية النابليونية في سنة1231هـ/ 1815م إلى صديقه جومار Jomard عضو المجمع اللغوي الفرنسي، يقول فيها: "وجدت أن إدارة الشئون كلها في مصر في أيدي الإيطاليين، واللغة الفرنسية في المحل الثاني، ولا يعلمون في المدارس الحربية سوى اللغة الإيطالية، ولا يترجمون سوى الكتب البسيطة التي وضعها مؤلفون من ذلك الشعب، ومدرسين الرياضيات واللغات والعلوم، والفنون وغيرها كلهم إيطاليون، وفي كل عام يرحل إلى أوربا ثلاثون أو أربعون شاباً ليتعلموا علومها وفنونها، ويظهر بواييه دهشته من هذا التفوق الإيطالي، وأنهم يعملون علي بث المخاوف في ذهنه الوالي من ناحية الفرنسيين الخادعين"([27]).

بيد أن مصر تتحول عن النقل من الثقافة الإيطالية إلى الثقافة الفرنسية تحت تأثير دروفيتي الذي أصبح قنصلاً لفرنسا بمصر بعد أن كان قد عمل مستشاراً لمحمد علي، وجومار الذي تم تعيينه من قبل الباشا مراسلاً لشئون العلاقات الثقافية بين مصر وفرنسا(28)، وكان عثمان نور الدين هو أول مبعوث مصري يتم إيفاده لأوروبا في عام1224هـ/1809م، وقد وقع الاختيار على عثمان من قبله أو من قبل يوسف بكتي قنصل السويدي العام بالقاهرة كما ذُكر في خطاب بين موظفين بالقنصلية الروسية بالقاهرة آنذاك، وهو الخطاب الذي يحسم تاريخ سفر عثمان نور الدين لأول بعثة تعليمية إلى إيطاليا، وكان ذلك أواخر نفس العام، وبحسب هذه الوثيقة (الخطاب) يتبين لنا أنه وصل إيطاليا وأقام بين (بيزا) و(ليفورنو) لنحو خمس سنوات يتلقى العلوم الحربية والبحرية وفنون السياسة وإدارة الحكم، بعد ذلك انتقل عثمان نور الدين إلى فرنسا في عام 1235هـ/1819م، بهدف دراسة البحرية حيث التقى خلالهما (المسيو جومار) أحد علماء الحملة الفرنسية في مصر، وكان-آنذاك- مكلفا من قبل الحكومة الفرنسية بنشر أعمال المعهد العلمي المصري (وصف مصر)، ولذكائه وتفوقه وإجادته لعدد من اللغات على رأسها الفرنسية وقع الفتى من نفس العلاّمة جومار موقعا حسنا كما ذكر كلوت بيك في مذكراته وتوطدت بينهما العلاقة مما جعله يطلب من عثمان بشكل مباشر السعي لدى الباشا لإرسال بعثات تعليمية إلى فرنسا، عاد عثمان نور الدين إلى مصر في نهاية عام1236هـ/1820م، وكانت أولى أوامر الباشا إليه إلزامه بترجمة قوانين البحرية المعمول بها في فرنسا، وقد ترقى عثمان نور الدين إلى أن وصل إلى رئيس العمارة البحرية المصرية في سنة1244هـ/1828م، وما زال عثمان يُلح على الباشا في إرسال البعثات العلمية إلي فرنسا حتى أُرسلت أكبر وأهم البعثات التعليمية المصرية في عام1242هـ/1826م([29]).

ومنذ وصول تلك البعثة إلى فرنسا، يحرص عدد كبير من شباب العلماء الذين رافقوا بونابرت في حملته على مصر – وقد أصبحوا في ذلك الوقت علماء راسخين يحوزون وظائف رئيسية في مؤسسات المعارف في فرنسا – على دعم هذا الاتجاه، وتقديم كل التسهيلات لهذه البعثة لنشر الثقافة الفرنسية في مصر([30])، ومنذ ذلك الحين فسوف تظل مصر مصطبغة بالثقافة الفرنسية في شتى نواحيها الفكرية.

وكان عدد أعضاء هذه البعثة ثلاثة وأربعين طالباً، ثم أُلحق بهم إمامها الشيخ رفاعة الطهطاوي ([31]) كان منهم 18 طالباً فقط من ذوي الأصول العربية الذين تخصصوا في الأساس في دراسة الطب والعلوم الصناعية، بينما كان أربعة طلاب من ذوي الأصول الأرمينية، أما الباقي فقد كانوا من ذوي الأصول التركية وتخصصوا في العلوم العسكرية والإدارة، و، وقد استقبلهم "جومار" عضو المجمع العلمي الفرنسي، وقد اختص منهم أحدي وعشرون مبعوثاً

لدراسة العلوم العسكرية وصناعة الأسلحة، في حين اختص أربعة منهم لدراسة الإدارة الملكية، وأثنان للطباعة، وأربعة لدراسة الكيمياء، وأثنان لدراسة الطب والجراحة، ومثلهما للزراعة، وثلاثة أعضاء للتاريخ الطبيعي والمعادن، وعضو واحد للترجمة ([32])، وقد كانت هذه البعثة هي أكبر البعثات وأكثرها أهمية حتى ذلك الحين وربما بعد ذلك أيضاً، لذلك فإن اللحظة الحقيقية لانطلاق الدولة نحو تحديث أفكارها وإدارتها على النمط الغربي كانت لحظة عودة هذه البعثة إلي مصر في سنة1247هـ/1831م، ولم يكن من العجيب أن ينشأ ديوان المدارس في أعقاب عودة هذه البعثة مباشرةً سنة 1252هـ/1836م، وأن يكون أول ناظراً لهذا الديوان مصطفى مختار بك أحد طلاب هذه البعثة ([33])، وأن تنشأ مدرسة الترجمة في عام 1251هـ/1835م، وأن يكون رفاعة الطهطاوي العضو الوحيد في البعثة المتخصص في الترجمة أول رئيساً لها([34])، كما سيصبح أعضاء هذه البعثة كبار أدوات الحكم والثقافة في مصر، فأصبح عبيدي شكري بك رئيساً للمجلس العالي ثم مديراً لديوان المدارس في عصر عباس الأول، أما أرتين بك تشراكيان فقد عين مديراً لمدرسة الإدارة الملكية، ثم بمجلس شورى المدارس، ثم سكرتيراً للوالي شخصياً ثم مديراً للشئون الخارجية، كما أن اسطفان بك أصبح فيما بعد ناظراً للخارجية أيضاً ([35])، إن أثر هذه البعثة سيمتد إلى كل ربوع مصر، فبفضل هؤلاء المبعوثين سيتم إعداد الكتب المدرسية التي يتم تدريسها في كل المدارس التي يقوم الباشا بإنشائها([36]).

وقد أوضح عبد الرحمن الرافعي أن الباشا قام بإرسال تسع بعثات إلى أوروبا في الفترة بين عامي1229-1264ه/ 1813 -1847م، وبعدد إجمالي 319 طالباً ([37])، وهو عدد أقل من الرقم الذي أورده الأمير عمر طوسون، الذي ذكر أن عدد المبعوثين خلال هذه الفترة قد وصل 311 طالباً([38])، على العموم ففيم بين عامي 1828 و1836 يمكن ملاحظة وجود 108 طالب في أوروبا، كان منهم 26 في بريطانيا، وأربعة في فيينا، فيما كان 78 في فرنسا، أي أن فرنسا استأثرت بـ 72% من إجمالي عدد الطلاب الذين كانوا في أوروبا خلال فترة حكم محمد علي باشا، وهو ما سوف ينعكس على التأثير الفكري الفرنسي في مصر، ويمكننا ملاحظة التخصصات الآتية؛ ثمانية وخمسين عضواً تخصصوا في الصناعات المختلفة، حيث كانت بعثة عام 1246ه/1830م في مجملها لتعلم ودراسة الصناعات المختلفة، مثل تعلم صناعة الآلات الجراحية، وصناعة الساعات والأحذية والسكر والعربات الخشبية، وأربعة عشر للبحرية، وثمانية للعلوم، واثنين للطب البيطري، واثنين للإدارة الملكية.

بيد أن البعثة الطبية التي أرسلت في عام1248ه/1832م والتي أصطلح على تسميتها بالبعثة الطبية الكبرى والتي اختير أعضائها بواسطة كلوت بك من خريجي مدرسة الطب بأبي زعبل، وكان عددها أثني عشر طبيباً حيث كانوا باكورة ثمرتها، كانت أكثر البعثات العلمية أثراً في تاريخ الطب في مصر([39]). ويمكن فهم الهدف الأساسي من وراء إرسال هذه البعثة في مقولة كلوت بك "إذا كان من الواجب لإقامة علم الطب في مصر على دعائم ثابتة وطيدة، وصبغه بالصبغة المصرية، وهو ما لم يكن ميسوراً إلا بتكوين أساتذة من المصريين يلقون الدروس من غير الحاجة إلى مساعدة المترجمين" ([40]). لقد كان طلاب هذه البعثة من نوابغ خريجي مدرسة الطب المصرية والبعثات أيضاً، فكانوا بحق أركان للنهضة الطبية والعلمية بمؤلفاتهم ومترجماتهم التي امتازت بالدقة، وكانوا أول أساتذة مصريين بمدرسة الطب في مصر، فأصبح منهم إبراهيم بك النبراوي طبيب الباشا الخاص([41])، وكان محمد بك الشافعي أول رئيس مصري لمدرسة الطب([42]).

وتمثل الفترة بين عامي(1247-1259ه/1837 -1843م) بداية الانطواء في داخل الدولة المصرية، والبعد عن كل ما هو غربي، في الوقت الذي بدأ فيه العدوان الأوروبي ضد محمد علي ومشروعاته وطموحاته، لذلك لم يكن من المستغرب أن ينصب هدف الباشا الأول من البعثة التالية على العلوم العسكرية ([43])، فكانت بعثة1260هـ/1844م والتي أطلق عليها بعثة الأنجال واحدة من أكبر البعثات التي أرسلت إلى فرنسا حيث بلغ عدد أعضاءها سبعين مبعوثاً، كانوا في مجملهم من شباب من أسرة محمد علي وأبناء بعض كبار رجال الدولة وبعض النابهين من

الطلاب، وبينما تخصص من هؤلاء المبعوثين تسعة فقط لدراسة الإدارة، فقد تخصص خمسة عشر لدراسة الطب، أما باقي أعضاء البعثة فقد تخصصوا في دراسة العلوم العسكرية([44]).

وقد سافرت أربع بعثات أخرى أقل أهمية بين عامي1261-1264ه/1845-1847م، الأولى سافرت إلى النمسا، وكانت تضم طالبين لدراسة الرمد، وستة طلاب إلى فرنسا لدراسة الطب البيطري والصيدلة، وكان من بين هؤلاء الطلاب الستة مصطفى الواطي أفندي الذي أصبح في أعقاب عودته رئيساً لقلم ترجمة العلوم الطبية بقلم الترجمة ([45])، وفي سنة 1847م سافرت بعثتان إلى إنجلترا، وكانتا تتألفان من 36 طالباً لدراسة الميكانيكا والعلوم البحرية([46]).

ويمكن تقدير تخصصات المبعوثين خلال عصر محمد علي على النحو التالي: 35% للعلوم العسكرية والبحرية، 27% للصناعات المختلفة، 18% للهندسة، 7% للطب، 7% للإدارة، و4% للزراعة، و 3% للعلوم، مما يعكس هدف الباشا من خلق دولة مستقلة حديثة تملك جيشاً قوياً وفعالاً، حيث كانت البعثات تستهدف أساساً تزويد الوالي بالكوادر اللازمة للجيش لدعم بناء الدولة الحديثة([47])، وهو هدف كان له المقام الأول، حيث زادت معاهدة لندن ومناورات القوى الأوربية من مخاوف محمد علي وارتيابه بالنسبة للأجانب، مما زاد من انطوائه داخل الدولة وجهازها العسكري، على العموم فإن هؤلاء المبعوثين سيصبحون أداة النهضة المصرية في المراحل التالية، خاصة خلال عهد إسماعيل([48]).

أثر البعثات العلمية إلى فرنسا بعد محمد علي:

لا يمكننا أن نفهم أثر البعثات العلمية إلي فرنسا في المجتمع المصري دون عمل مقارنة بين عصر محمد على وعصر خلفائه، كما أن هؤلاء المبعوثين كانوا في الواقع بناة النهضة خلال عصر إسماعيل كما سنري، فقد استمرت الدولة في عهد عباس (1848 – 1854م) في إرسال البعثات إلى أوروبا، ولكن عباس أظهر منذ بداية حكمه إعراضاً كبيراً عن الثقافة الفرنسية، فقام بإغلاق المدرسة المصرية في باريس في عام 1265هـ/1848م([49])، ومن بين حوالي واحد وأربعين مبعوث قام عباس بإرسالهم إلى أوروبا لم يرسل منهم إلى فرنسا إلا ثلاثة فقط، في حين كان لبرلين وميونخ وفيينا النصيب الأكبر في عدد المبعوثين، حيث أرسل إليهم 29 مبعوثاً، وبنسبة 70% من إجمالي عدد المبعوثين خلال عهده، فيما استأثرت كلاً من إيطاليا وبريطانيا بخمسة مبعوثين لكل منهم فقط ([50])، وهو ما يوضح أن أثر سياسة فرنسا تجاه مؤتمر لندن1256هـ/1840م، ربما ألقي بظلاله على قرار عباس بشأن إرسال المبعوثين، ويوضح تخصص المبعوثين خلال عهد عباس التركيز الشديد علي دراسة العلوم الطبية، ففيما عدا المبعوثين الثلاث الذين أرسلوا إلى فرنسا لدراسة الفلك كان باقي المبعوثين قد أرسلوا لتعلم الطب([51])، ولكن عباس الذي كان متقلب المزاج وسريع الانفعال، أصدر أوامره في سنة 1270 هـ/1835م بعودة جميع المبعوثين المصريين من أوروبا، وهو ما أحدث أزمة حقيقية داخل أجهزة الإدارة في مصر، حيث أن عدد كبير من المبعوثين العائدين لم يكونوا بعد قد أتموا دراساتهم، وفور عودتهم طالبوا بالعمل في أجهزة الدولة، ولكنهم فشلوا في أداء مهامهم، فالطلاب الذين أرسلهم عباس إلى فيينا لدراسة الطب، – وهم خمسة طلاب؛ وهم محمد عزمي وحسن عارف ومحمد وفائي وعبد الرحمن شكيب ومحمد راشد – بعد أن أمضوا في دراستهم ثلاث سنوات تم استدعائهم بناءاً على أوامره ودون أن يتعلموا شيئاً يذكر من العلوم الطبية، ولم تجد الإدارة نوعاً ما من العمل يمكن أن يقوموا به، فتم تعيينهم في الاستحكامات العسكرية، وفشلوا في العمل، ونقلوا إلى المساحة، وكان الفشل هو قدرهم أيضاً، وعندما سئلوا من جانب الإدارة عن أي شيء تعلموه يمكن أن يعملوا به، فكانت إجابتهم أنهم لم يتعلموا خلال الثلاث سنوات سوى اللغة النمساوية ومبادئ الطب([52]).

هذه الأزمة أصبحت واضحة أيضاً باستدعاء الثمانية عشر طالباً المبعوثين إلى برلين، حيث كان منهم أربعة فقط قد نالوا درجة طبيب، وأربعة تعلموا اللغات النمساوية والفرنسية، وواحد فقط تعلم الصيدلة، في حين كان تسعة لم يتعلموا أي شيء بسبب المدة البسيطة التي

قضوها في برلين، ولدي عودتهم أصبحوا عبء إضافي علي الجهاز الإداري للدولة بدلاً من أن يكونوا كما كانوا أداة لتطويره([53]).

وخلال السنوات التسع التي تمثل حكم سعيد (1854 – 1863م) استؤنفت البعثات مرة أخرى إلى فرنسا مع الاحتفاظ على التخصص في العلوم الطبية والإعراض عن العلوم العسكرية. فإذا أخذنا تقدير الأمير عمر طوسون لعدد المبعوثين بصورة أكبر من المصداقية وهو عدد 48 مبعوث فسوف نجد 34 منهم أرسلوا إلى فرنسا، بينما كان 14 طالباً أرسلوا إلى باقي أوروبا، أي أن 70% من هؤلاء المبعوثون ارسلوا إلي فرنسا، مما يعكس عودة مصر إلى الأخذ عن الثقافة الفرنسية ([54])، ومن بين هؤلاء المبعوثين في عهد سعيد كان منهم 30 طالباً يدرسون الطب وبنسبة تبلغ 62% من إجمالي عدد المبعوثين خلال عهد سعيد، ففي العام 1279هـ/1862م أرسل سعيد بعثة طبية كبرى إلى باريس مكونة من أربعة عشر طالباً من خريجي مدرسة الطب المصرية لتعلم الجراحة، واستكمال دراستهم([55])، وكانت السمة التي تميز بها المبعوثين خلال عصر عباس وسعيد أن أغلبهم يعودون في أصولهم إلى العائلات التركية، أو إلى العائلات التي أرسل منها مبعوثين خلال عهد محمد علي، وهو ما يعضد عملية تكوين النواة الرئيسية لكبار موظفي الدولة([56]).

كان أهم نتائج البعثات في عصر محمد على أن البعثات أصبحت جزء من نظام التعليم المصري، وقد ساعد ذلك بلا شك على تقوية الاتصال بالحضارة الغربية، وإحداث تواصل واتصال مستمر بما وصلت إليه أوروبا من تقدم، وكان إسماعيل في تكوينه الفكري والثقافي أحد إفرازات هذا النظام، فكان ضمن بعثة الأنجال التي أرسلت إلى فرنسا في سنة1260هـ/1844م، وقد وقف بالتالي على الحضارة الغربية والمجتمع الغربي([57])، ولما تبوأ إسماعيل عرش مصر ساعده تعليمه ورحلته إلى أوروبا، واطلاعه على حضارتها وأنظمتها أن يحكم البلاد حكماً مطلقاً يتولى في تصريف شئون الدولة ويشرف بنفسه على جميع الأمور التي ترفع إليه، ويتصل مباشرةً بجميع طبقات الأمة دون اللجوء إلى المترجمين، ثم كانت معرفته بالغة العربية قد مكنته من تعميم استعمالها وجعلها لغة البلاد الرسمية بدلاً من اللغة التركية، فبتاريخ 6 شوال 1286هـ/ 30 ديسمبر 1870م أصدر أوامره إلى نظارات الدولة بأن تستعمل اللغة العربية فقط في مراسلاتها([58]).

ومع مجيء إسماعيل يتغير الثقل النسبي والنوعي للبعثات الدراسية في الخارج تغيراً كبيراً، فلأول مرة منذ عهد محمد علي يعود الخديوي إلى الرغبة في أن يخلق للدولة المصرية – التي أصبحت شبه مستقلة عن الباب العالي – جهازاً عسكرياً قوياً([59])، فمن بين 172 مبعوث تم إرسالهم إلى أوربا خلال عصر إسماعيل تم توجيه 50 منهم (أي 29%) لدراسة العلوم العسكرية، حيث توجهوا إلى مدرسة تورينو العسكرية بفرنسا([60])، ولكن أحتل المرتبة الأولى في الاتجاهات الدراسية للمبعوثين خلال عهد إسماعيل، حيث تخصص في الطب 120 مبعوث (أي 69%)، ولا شك أن هذه السمة الطبية العامة التي سيطرت على تاريخ البعثات سوف تنعكس على المترجمات بصورة كبيرة كما سنرى.

فقد كان أهم نتائج مشروع التحديث الذي بدئه محمد علي هو تطوير التعليم على النمط الغربي عبر مشروع المدارس النظامية الحديثة، ولم يكن في الإمكان تأسيس تلك المدارس وإيجاد مناهج دراسية حديثة لها دون البعثات العلمية التي كان لفرنسا فيها الحظ الأوفر، ورغم توقف مشروع الدولة في إرسال البعثات مع نهاية القرن التاسع عشر نتيجة للأزمة المالية الكبيرة التي مرت بها البلاد خلال عهد إسماعيل، إلا أن مشروع البعثات لم يتوقف فقد أدرك الأهالي أن السبيل إلي الارتقاء بأبنائهم ليحتلوا مكانة اجتماعية واقتصادية كبيرة هو التعليم، فقد أصبح هؤلاء المبعوثين من أغنياء مصر، وصاروا يحتلون مراكز إدارية واجتماعية كبيرة، وتغيير وضعهم من فقراء ومعدمين من أبناء الريف إلا بكوات وباشوات من كبار رجال البلاد، وقد تم ذلك من خلال التعليم في أوروبا، لذلك فقد أقبل أعيان البلاد على إرسال أبنائهم للدراسة في أوروبا وخاصة فرنسا، فخلال عام1298هـ/1880م كان في فرنسا تسعة طلاب مصريون يدرسون على

نفقات ذويهم([61])، وسوف يرتفع ذلك العدد بشكل تدريجي مع بدايات القرن العشرين، إلا أن العلوم النظرية وخاصة القانون عادت لتأخذ مكان الصدارة في تلك البعثات بينما تراجعت العلوم التطبيقية حتى إنشاء الجامعة الأهلية.

دور المبعوثين في بناء الدولة الحديثة:

ليس ثمة من شكوك في أن سياسة محمد علي التعليمية – على الرغم من أنها كانت موجهة لتطوير الجيش وتقويته وإعداد موظفين لحكومته – كانت سبباً في انفتاح مصر على الثقافة الغربية، وأن البعثات كانت واحداً من أهم أبواب هذا الانفتاح، كما أن حركة الترجمة التي قام بها هؤلاء المبعوثين كانت الباب الثاني لإكمال الانفتاح على المجتمع الغربي، والنهل من علومه وحضارته التي تفوق فيها، حيث تولى هؤلاء المبعوثين بأوامر من الباشا شخصياً جمع وشراء أهم وأحدث الكتب التي صدرت في تخصص كلٍ منهم([62])، ولقد كانت البعثات أفضل أداة صالحة وفعالة في نقل علوم الغرب وفنونه وصناعاته إلى مصر علماً وعملاً، وكان الباشا قد حدد الاستفادة من هؤلاء المبعوثين عدة ميادين أهمها: ترجمة كل منهم للكتب التي درسها في أوربا في تخصصه من أجل تدريس هذه الكتب في المدارس المصرية، وذلك للوقوف على أحدث العلوم الغربية التي تدرس من أجل خلق جيل جديد من المتعلمين في مصر على الفكر والثقافة الغربية([63]). ترجمة اللوائح والقوانين من أجل تحديث الدولة ذاتها، وتحويل بنية الدولة من الأنظمة العثمانية إلى الأنظمة الأوربية، وتولى هؤلاء المبعوثين الدواوين المستحدثة وخاصةً ديوان المدارس، وهو المعني الأساسي بتطوير التعليم والفكر في مصر([64]). كما تم تعيين هؤلاء المبعوثين بالمدارس التجهيزية والعليا كمدرسين، ومنحهم حرية أوسع لتطوير وإنشاء المزيد من هذه المدارس من أجل تطوير وتحديث التعليم في مصر([65])، وأخيراً إلحاق هؤلاء المبعوثين بإدارة الدولة وأجهزتها للمساعدة في تطوير الإدارة المصرية على النمط الغربي([66]). وتنفيذ مشروعات الدولة الكبيرة، ويكفي الإشارة إلي فنار الإسكندرية ذلك المشروع الهندي الرائع الذي تحدث عنه كثير من الرحالة والكتاب، الذي أشرف عليه ونفذه مظهر باشا أحد طلاب الذين أرسلوا لدراسة الهندسة في فرنسا([67])، ويمكن تحليل إيضاح الدور الذي لعبه هؤلاء المبعوثين في بناء بنية الدولة الحديثة خلال تلك الفترة كما يلي:

أولاً: ترجمة الكتب الدراسية:

كان الباشا يرى أن أول واجبات أعضاء البعثات التي أرسلها إلى أوروبا ترجمة كتب العلوم التي درسوها في أوروبا، فمنذ وصولهم إلى فرنسا كان الباشا يستحثهم منذ تعلمهم للغة الفرنسية على ترجمة الكتب التي يدرسها كل منهم في تخصصه لاستخدام هذه الكتب وتدريسها في المدارس المصرية ([68])، فمثلاً في سنة 1245هـ/1829م أرسل محمد علي شخصياً إلى عبيد أفندي المشرف العام على البعثة في باريس يطلب منه إرسال بيان عما ترجمه أعضاء البعثة في باريس من الكتب، ثم أرسل إليه في عام 1246هـ/1830م يؤنبه على تقصيرهم في الترجمة، ويضرب له مثلاً بكاني أفندي الذي جاء من الأستانة، وتعلم قليلاً من اللغة الفرنسية في مصر، ورغم ذلك فإن ما ترجموه يمكن أن يقوم به كاني أفندي في أسبوع واحد، ويستحثهم على بذل مزيد من الجهد في ترجمة الكتب التي يدرسونها([69])، وفي 22 ربيع أول سنة 1249هـ/ 1833م أصدر الباشا أوامره إلى بوغوص بك بأنه كان قد تنبه على كلوت بك بإلزام الطلبة الذين أرسلوا إلى أوروبا لتلقي فنون الطب بها بترجمة الكتب التي يرسونها أولاً بأول إلى اللغة العربية، وإرسالها إلى مصر([70]).

هكذا كانت تصدر الأوامر من الباشا إلى المبعوثين – وهم بعد في طور التحصيل في أوربا – بأن يقوموا بترجمة الكتب التي يدرسونها إلى اللغة العربية، فترجم الطهطاوي "مبادئ العلوم المعدنية"، وترجم إبراهيم النبراوي "نبذة في الفلسفة" و"نبذة في أصول الطبيعة والتشريح العام"، وترجم عيسى النحراوي "كتاب التشريح العام"، وطبع في بولاق في سنة 1254هـ/1838م ([71])، كما ترجم رفاعة الطهطاوي كتاب "التعريفات الشافية لمريد الجغرافية"، حيث انتخب وتخير فيه خلاصة في عدد من المراجع الفرنسية، حيث جاء في مجلد

ضخم ترجمه من الفرنسية لتدريس الجغرافية في المدارس المصرية، وأضاف إليه أيضاً إيضاحات، وطبع في بولاق في سنة 1254هـ/1838م، كما ترجم أيضاً "مبادئ الهندسة" بهدف استخدامه في مدرسة المهندسخانة ([72]).

هكذا عكف المبعوثين منذ تعلمهم مبادئ الفرنسية على ترجمة الكتب الدراسية التي كانوا يدرسونها، وفور عودتهم - وهم بعد ما يزالوا في الحجر الصحي – كان الباشا يلزمهم بترجمة الكتب الفرنسية المختصة بالعلم الذي درسه كل منهم لاستخدامه في المدارس([73])، فعندما عاد أعضاء بعثة 1242هـ/1826م من أوروبا استقبلهم محمد علي في مقر الحكم بالقلعة، حيث شرح لهم حاجة المدارس الجديدة لكتب علمية على النمط الفرنسي لتدريسها للطلاب، وأعطي كل منهم كتاباً فرنسياً في المادة التي درسها في أوروبا ليقوم بترجمته إلي اللغة العربية، وأمر بحجزهم في أحد قصور القلعة وأن لا يؤذن لأحد منهم بمغادرته حتى يتموا ترجمة ما عهد إليهم بترجمته، وأصبح ذلك العرف قانون على كل المبعوثين العائدين من أوروبا إتباعه، وبذلك فقد كان على كل مبعوث من العائدين من أوروبا أن يقوم بترجمة أحد الكتب التي تدرس في تخصصه في أوروبا من أجل تدريسه في المدارس، فترجم محمد بيومي أفندي الهندسة الوصفية في مجلدين فور عودته من أجل تدريسها لطلاب مدرسة المهندسخانة([74]) بل دفعت حاجة المدارس لكتب ومقررات معينه دفعت ديوان المدارس لتكليف بعض المبعوثين بترجمة بعض الكتب في غير تخصصاتهم من أجل تدريسها لطلاب في المدارس، وكانت الدواعي وحاجة المدارس تدفع الباشا إلى أن يعهد إليهم في بعض الأحيان بترجمة بعض الكتب غير المتخصصين بها ليمكن استخدامها في المدارس في أسرع وقت مستطاع([75])، ففي الوقت الذي تخصص فيه أحمد حسن الرشيدي في دراسة الطب - ففور عودته من البعثة الطبية الكبرى إلى مصر في سنة 1254هـ/1838م – عهد إليه بترجمة كتاب "الدراسة الأولية في الجغرافيا الطبيعية"، وهو ما يعكس حقيقة مهمة مفادها أن حاجة المدارس إلى نوعية معينة من الكتب كانت المتحكم الأول في اتجاهات الكتب المترجمة بواسطة هؤلاء المبعوثين([76]).

وفي سنة 1248هـ/1832م ألزم الباشا عدد كبير من العائدين من فرنسا بالبقاء في قصر إبراهيم باشا في بولاق لترجمة كتب "تدريب المشاة" و"تدريب الفرسان"، وكان من هؤلاء أرتين أفندي، وإستيفان أفندي، وغيرهم([77])، وبالطبع فقد كان الهدف الأساسي من وراء ذلك هو تدريس هذه الكتب في المدارس العسكرية المصرية، ويعكس حجم الكتب المترجمة للمدارس في العشرينات والثلاثينات الدور الكبير الذي قام به المبعوثين في حركة الترجمة لتوفير الكتب والمناهج الحديثة لطلاب المدارس في مصر، ففي العشرينات من القرن التاسع عشر لم يترجم إلا أحد عشر كتاباً للمدارس، بينما ترجم في الثلاثينات والأربعينات – بعد عودة البعثة الكبرى من فرنسا بلغ عدد الكتب التي تم ترجمتها 168 كتاب لتدريسها في المدارس المختلفة ([78])، وهو ما يؤكد على أن معظم الكتب التي ترجمت خلال عهد محمد علي ترجمت لفائدة التعليم بالمدارس الخصوصية والعليا وخاصة مدرسة الطب والهندسة والمدارس العسكرية، كما أن عدداً ليس بالقليل من الكتب التي ترجمت كان لأساتذة من المدرسين في هذه المدارس أمثال كلوت بك([79])، فمثلاً ترجم لكلوت بك اثنى عشر مؤلفاً، كان بعضها يدرس في مدرسة الطب بأبي زعبل، منها "مبلغ البراح في علم الجراح" و"العجالة الطبية فيما لا بد منه لحكماء الجهادية"، كما ترجم له أيضاً الدكتور إبراهيم النبراوي ثلاثة كتب في الفلسفة الطبيعية والتشريح العام والتشريح الطبي([80]).

هكذا كان توفير الكتب للمدارس التي أنشأها الباشا سلفاً هدفاً أساسياً من أجل تعليم جيل جديد من أبناء البلاد، واستمر عطاء العائدين من البعثات خلال ثلاثينات وأربعينات القرن التاسع عشر يتدفق لتغذية المدارس العسكرية والطبية والهندسية بالكتب المترجمة، وفي نهاية عهد محمد علي أصبح خريجو مدرسة الطب المصرية لا يقلون في المستوى عن خريجو المدارس الفرنسية بشهادة الأطباء الفرنسيين أنفسهم([81]).

وظلت عملية تزويد المترجمين بالكتب المراد ترجمتها تتم نتيجة ما يقوم به ديوان المدارس من طلب إلى نظار المدارس الخصوصية في كل عام، بإعطائه بياناً بالمؤلفات التي

جدت في المواد التي تدرس بمدرستهم، حتى إذا وجدت بمكتبة مدرسة الألسن وزعت على المترجمين، وإلا بعث في طلبها من أوروبا([82])، وقد ترجمت نتيجة لهذه السياسة أعمال متعددة المجالات وفي موضوعات شتى، وزعت على المترجمين دون النظر إلى تخصصاتهم.

وقد نصت لائحة مدرسة الزراعة التي أنشأت على أيدي المبعوثين في العام1255هـ/ 1839م على أن المدرس الأول "الباشخوجة" عليه أن يقضي بقية ساعات اليوم في ترجمة دروس النبات والموضوعات الأخرى التي يحيل إليه الناظر ترجمتها من الفرنسية إلى العربية ([83])، أما المبعوثين العاملين في مدرسة الهندسة فقد أشادت بمجهوداتهم لجنة المدارس لما أسهم به المدرسون من الإسراع في عملية ترجمة الدروس والكتب المدرسية وطبعها بالمطبعة الحجرية الملحقة بالمدرسة([84]).

وقد ظل تعريب الجديد في العلوم التي تخصص بها هؤلاء المبعوثين هدفاً ملحاً لهم من أجل تدريسه لهم من أجل تدريسه للطلاب، فقد ذكر الدكتور محمد الشباسي في مقدمة ترجمته لكتاب "التنقيح الوحيد في التشريح الخاص الجديد" تأليف "كروليه" - والذي يقع في ثلاثة أجزاء كبيرة مكون من 1320 صفحة – أن هدفه الأساسي من ترجمة هذا الكتاب هو تدريس الجديد في علوم التشريح لطلاب مدرسة الطب في مصر، فيقول "لما وكل إلي تعليم فن التشريح لطلاب مدرسة الطب الإنساني لم يكن بها كتاب جامع لمادة التشريح، وكانت معارف الطلاب قاصرة على كتاب الماهر "بيل" وهو في غاية الاختصار، ومطبوع منذ زمن طويل"، وهكذا فقد عمل عدد من أساتذة المدارس العليا الخصوصية على ترجمة الكتب الأحدث في تخصص كلٍ منهم لتدريسها للطلاب([85]).

على العموم فليس ثمة من أثر أكثر وضوحاً للبعثات في بناء الدولة الحديثة من ميدان الترجمة والتدريس في المدارس، ويمكن رؤية ذلك من خلال الكتب المترجمة، ففي العشرينات من القرن التاسع عشر لم يتجاوز حجم الكتب المترجمة حوالي 21 كتاب، ولكن عدد الكتب المترجمة ارتفع في ثلاثينات القرن التسع عشر – بعد عودة البعثات – إلى 102 كتاب (أي خمسة أمثال ما ترجم في العشرينات)، مما يوضح الدور الكبير للمبعوثين في حركة الترجمة([86])، وكان التفكير قد اتجه إلى جمع كل المبعوثين العائدين إلى مصر في جهاز واحد ليقوموا بالترجمة، ويحققوا ما كان يصبوا إليه الباشا من نقل ثقافة الغرب بأكبر كمية وفي أسرع وقت، ولكن هذه الفكرة لم ترى النور. يميز الشيال للترجمة في عصر محمد علي لمرحلتين أساسيتين؛ الأولى تبدأ منذ تولي محمد علي للحكم وحتى عام1251هـ/1835م، والثانية تبدأ مع تأسيس مدرسة الألسن في عام 1252هـ/1836م، فإن المرحلة الأولى اعتمدت في الجزء الرئيسي منها على جهود طلاب البعثات الذين وقع عليهم العبء الأكبر من أجل توفير العلوم الغربية في ثياب عربية، لقد قام أعضاء البعثات الدراسية على أثر عودتهم إلى مصر وتحت رقابة الدولة بعمل مثمر في مجال الترجمة التي روت عقول الصفوة الجديدة من الموظفين والضباط والأعيان وكبار رجال الدولة إضافة إلى طلاب المدارس ومشايخ الأزهر، ولم يكن الأمر قاصراً على المعارف العلمية والتكنولوجية الضرورية للجيش والدولة فقط وإنما شمل كذلك العلوم الإنسانية، وتقديم أفكار ونظريات جديدة حول التطور والتقدم والتمدن في إطار أضيق ولكن كان ذلك نقطة انطلاق هذه العلوم في عصر إسماعيل فيما بعد.

لقد أدرك محمد علي منذ البداية أنه لا سبيل إلى الارتباط بين المعرفة الجديدة التي يتم نقلها من الغرب الأوربي وبين عقل المجتمع واحتياجاته إلا وضع هذه المعرفة في برامج التعليم، وقد ربط الباشا بين التوسع التعليمي وبين التخطيط لتحقيق نهضة عسكرية واقتصادية شاملة، وكان يدرك أنه لابد لتحقيقها أن يتم بناءها على أسس "العلم" الذي كان من الصعب أن يتم اختراعه، لذلك أدرك أنه لابد من ترجمته ووضعه في صلب شرايين المقررات الدراسية ([87]) من أجل خلق جيل جديد يستطيع النهوض وإقامة البنية الأساسية للدولة الحديثة التي يرغب في إقامتها، هكذا سعى محمد علي إلى اكتساب العلوم اللازمة لبناء قوة عسكرية تتيح له القدرة على تأسيس إمبراطورية خاصة به، فكان التجديد لديه تجديداً تكنولوجياً يهدف إلى نقل علوم الغرب ومعارفه

التطبيقية والعملية قبل أي شيء آخر([88])، ويأتي الطب على رأس هذه القائمة، وأهم الذين ترجموا في هذا المجال من المبعوثين كان الطهطاوي، وعلي هيبة، وإبراهيم النبراوي، وأمد حسن الرشيدي، ومحمد عبد الفتاح، وحسين غانم الرشيدي، وعيسوي النحراوي، ومصطفى السبكي، ومحمد الشافعي([89])، وكلهم من المبعوثين إلى فرنسا، وهو ما جعل مدرسة الطب المصرية أكثر ارتباطا بالفرنسية([90])، ويمكن أن نرى بعض ما قام بترجمته حجم ما بذله بعض هؤلاء الأطباء من مجهودات في نقل وترجمة الكتب الطبية إلى اللغة العربية في الجدول التالي:-

اسم المترجم	اسم الكتاب	المصحح	المؤلف	اللغة		مكان الطبع	سنة الطبع
				من	إلى		
إبراهيم النبراوي	الأربطة الجراحية نبذة في الفلسفة الطبيعية نبذة في التشريح العام نبذة في التشريح المرضي	الشيخ الهراوي الشيخ الهراوي الشيخ محرم	ــ كلوت بك	الفرنسية الفرنسية	العربية العربية	بولاق بولاق	1252 هـ/ 1838م 1253 هـ/ 1837 م
أحمد حسن الرشيدي	رسالة في تطعيم الجدري بهجة الرؤساء في أمراض النساء نزهة الإقبال في مداواة الأطفال الروضة البهية في مداواة الأمراض الجلدية نخبة الأماثل في علاج أمراض المفاصل	ــ ــ ــ ــ ــ	كلوت بك ــ ــ ــ ــ	الفرنسية الفرنسية الفرنسية الفرنسية الفرنسية	العربية العربية العربية العربية العربية	بولاق بولاق بولاق بولاق بولاق	1250 هـ/ 1834 م 1262هـ/ 1845 م 1261 هـ/ 1845 م 1263 هـ/ 1846 م 1264 هـ/ 1847 م
محمد الشباسي	التنوير في قواعد التحضير التنقيح الوحيد في التشريح الخاص الجديد	ــ الشيخ سالم عوض القيتاني والشيخ محمد عمر التونسي	ــ كروليه	الفرنسية	العربية	بولاق	1264 هـ/1847 م 1266 هـ/1849م
محمد الشافعي	أحسن الأغراض في مداواة وعلاج الأمراض كنوز الصحة ويواقيت المنحة الدرر الغوال في		ــ كلوت بك كلوت بك	الفرنسية الفرنسية	العربية العربية	بولاق بولاق	1259 هـ/1843م 1260 هـ/1844م

	معالجة أمراض الأطفال						
علي هيبة	مطالع السعادة والإقبال في علم الولادة وأمراض النساء فسيولوجيا إسعاف المرضى في علم منافع الأعضاء	أحمد حسن الرشيدي -------- ---- الشيخ محمود محرم	ــ ــ ــ	الفرنسية الفرنسية الفرنسية	العربية العربية العربية	بولاق بولاق بولاق	1258 هـ/1842م 1252 هـ/1836م

الواقع أن هذا الجدول لا يمثل سوى القليل من المجهود الكبير الذي قام به المبعوثون العائدون من أوروبا لترجمة الكتب كلاً في العلم الذي تخصص فيه، ويكفي فقط الإشارة إلى أن الكتب الطبية المترجمة في الفترة من1251-1255ه/ 1835 -1839م كانت ثلاثون كتاباً (91)، هكذا أقام هؤلاء الأطباء القواعد الأساسية لمدرسة الطب في مصر بترجمتهم هذه الأعمال، حيث وفر هؤلاء الأطباء المادة العلمية الأساسية باللغة العربية التي يمكن تدريسها للطلاب في مدارس الطب، إضافة إلى خبرتهم العلمية التي درسوها لطلابهم(92)، كما وقع عبء وصياغة مصطلحات طبية جديدة على هؤلاء المبعوثين، فقاموا بترجمة القاموس الطبي الفرنسي والذي اختار له الشيخ محمد عمر التونسي عنوان "الشذور الذهبية في الألفاظ الطبية"(93) كما ساعد هؤلاء المبعوثين لدى عودتهم على نشر الوعي الصحي داخل بنيان المجتمع المصري، ولك أن تتخيل الوضع الصحي في مصر في العشرينات(94)، وتقارن بينه وبين الوضع في الثلاثينات والأربعينات من القرن التاسع عشر، فقد أمكن لهؤلاء الأطباء نشر استخدام أمصال طبية من أجل مقاومة الأمراض الوبائية مثل الجدري والطاعون لدى الإنسان، والحمى القلاعية لدى الحيوانات(95)، ويجب ملاحظة أن جميع كتب الطب المترجمة في عصر محمد علي ترجمت عن اللغة الفرنسية، ولكن الكتب التي كان مؤلفيها إنجليز أو طليان فقد ترجمت من الترجمة الفرنسية، ويرجع ذلك بالطبع إلى ثقافة هؤلاء المبعوثين الفرنسية(96)، أما التزام السجع في عناوين الكتب الطبية المترجمة فقد كان يرجع لطبيعة العصر، حيث كان يتم اختيار هذه العناوين من قبل مشايخ الأزهر الذين يقومون بتصحيح ومراجعة هذه الكتب(97).

أما عن العلوم الهندسية فقد كان الباشا يوليها أولوية كبيرة من أجل تحديث الأفكار الهندسية بخاصة منها الخاصة بمشروعات الري والمساحة من أجل إقامة المشروعات الزراعية (98)، فقد كان الباشا بحاجة إلى مهندسين يمسحون الأرض ليعرف المساحة التي يمكن زراعتها على حسب الطلب في السوق الأوربية، كما كان في حاجة إلى مهندسين يحفرون الترع، ويقيمون الجسور والقناطر(99)، وينشئون المصانع، ويشرفون على إدارتها، ويدرسون طبقات الأرض، ويبحثون عن معادنها، ويبنون للجيش ثكناته وطوابيته واستحكاماته، ويضعون له خططه، لهذا فقد حرص محمد علي أن يتخصص عدد من هؤلاء المبعوثين في دراسة الهندسة والعلوم الرياضية في أوروبا سواء في فرنسا أو إنجلترا وفيما بعد ألمانيا، وذلك من أجل إعداد جيل جديد من المهندسين يمكن استخدامهم في أعمال الحكومة لتطوير آليات عملها، ومن أجل تلك الأهمية لم يكن من المستغرب أن تحتل علوم وفنون الهندسة المرتبة الثانية في أهمية الميادين المترجم بها، أما عن أهم المترجمين في العلوم الهندسية والرياضية من طلاب البعثات، فقد كانوا محمد بيومي أفندي، وإبراهيم عزام أفندي، وأحمد طايل(100).

وقد شملت حركة الترجمة خلال عصر محمد علي فنوناً وعلوماً كثيرة ومختلفة، وبالتالي فقد زودت الثقافة العربية بعشرات الكتب الجديدة في مجالات لم نادرة التأليف والكتابة بها، وبالتالي فقد نقلت إليها ألوف المصطلحات والألفاظ لم تكن نعرفها. كما أن علميات الترجمة تبعتها عناية كبيرة بالقواميس في مختلف اللغات الشرقية والعربية، فترجمت إلى اللغة العربية قواميس إيطالية وفرنسية وفارسية وتركية، وكان ذلك مقدمة مهمة للغاية لتعريب العلوم الحديثة وتسهيل الصعاب أمام القائمين بعمليات الترجمة، وقد زود ذلك اللغة العربية بثروة عظيمة من الألفاظ والمصطلحات، وقد استدعت العناية بالقواميس الأجنبية العناية بالقواميس العربية القديمة، حيث كان لابد من مراجعة المعاجم العربية القديمة في سبيل أن تخرج تلك القواميس مضبوطة بشكل صحيح. وبذلك فقد استفادة اللغة العربية من حركة الترجمة فائدتين – مباشرة وغير مباشرة – أما الفائدة المباشرة فكانت نقل عشرات الكتب في العلم والفنون المختلفة إليها، أما الفائدة غير المباشرة فكانت بالعناية بالقواميس الجنبية والعربية جميعاً، مما فتح الباب لمرحلة ترجمة أكبر وأوسع خاصة مع عمل المطابع الحديثة في مصر خلال الفترة التالية([101]).

ثانياً: ترجمة اللوائح والقوانين:

كانت رغبة محمد علي في بناء دولة على النمط الغربي في نظامها الإداري العسكري واحدة من أهم العوامل التي دفعته إلى إرسال البعثات إلى أوروبا، فكان إعداد الجيش الحديث والبحرية الجديدة إضافة إلى الإدارة الحديثة يتطلب ترجمة النظم والقوانين القائمة عليها هذه المؤسسات في أوروبا، وكان المبعوثون خير معين للدولة الجديدة على بلورة أفكارها ومؤسساتها لتحديثها والتخلص من الأنظمة العثمانية، ويكفي فقط الإشارة هنا إلى عثمان نور الدين والجهود الكبيرة التي قام بها في ترجمة اللوائح والقوانين العسكرية والبحرية، ففي العام 1241هـ/1825م ترجم عثمان نور الدين إلى التركية " سياسة نامة جهادية بحرية" و"قانون نامة عساكر سوراي جهادية" و"قانون نامة سفاين بحرية جهادية"، هذه الترجمات للقوانين البحرية لا شك في أنها أسهمت في دعم بناء المنظومة البحرية المصرية الحديثة، حيث استمدت منها البحرية المصرية قوانين الخدمة والعقوبات واللوائح التنظيمية والإدارية والرتب والدرجات وأساليب الترقي وغير ذلك، وترجم أسطفان أفندي "كوماندارية الفرسان"، وترجم أحمد أفندي خليل "قانون نامة عساكر بياد جهادية" و"قانون نامة عساكر طوبجيان جهادية وبحرية"([102])، أما رفاعة الطهطاوي فقد ترجم الدستور الفرنسي، وضمه إلى كتابه "تلخيص الإبريز"، ، وفي سنة1261هـ/1845م جرى ترجمة قانون الصحة من اللغة الفرنسية إلى العربية تحت إشراف كلوت بك، وفي عهد إسماعيل يقوم الطهطاوي بترجمة كما ترجم القانون المدني الفرنسي وقانون التجارة ، كل ذلك سوف يوفر آليات ولوائح العمل داخل الدولة الحديثة([103]).

هكذا أخذ الباشا في يستمد عدد كبير من قوانين الدولة الحديثة العسكرية والإدارية وغيرها من القوانين الغربية، فلم تصدر لائحة تنظيم التعليم إلا في العام1252هـ/1836م بعد عودة البعثة الدراسية الكبرى من فرنسا، حيث اشترك عدد كبير من هؤلاء المبعوثين في وضع هذه اللائحة، والتي استمدت أجزاء كبيرة في روحها من القوانين الفرنسية، حتى أن اللوائح التي وضعتها تلك اللجنة في عام1252هـ/1836م، واللوائح الثانية التي وضعتها اللجنة التي نظمت التعليم مرة أخري في عام1257هـ/1841 وضعت أولاً باللغة الفرنسية ثم ترجمت إلي اللغة العربية([104])، كما قام قلم الترجمة بترجمة القوانين الفرنسية التي طبعت في المحاكم المختلطة التي تم تأسيسها في عصر الخديوي إسماعيل ([105]). هكذا فقد كان إصدار اللوائح والقوانين البداية الحقيقية لتحول الدولة لمساوات الأفراد أمام القانون أو اللوائح وتحديد اختصاصات كل من يشغل منصب محدد في الجهاز الإداري للدولة الحديثة بعيداً عن شخصه، فكانت بداية تنظيم الجهاز الإداري في مصر بشكل فعال، وسوف يتطور ذلك بشكل كبير مع تأسيس الدواوين وتحديد اختصاصاتها في اللوائح والقوانين الخاصة بها.

ثالثاً: تعيين المبعوثين في المدارس:

كان الغرض الأول الذي دفع محمد علي إلى إرسال البعثات المختلفة إلى ممالك أوروبا أن يكون في مصر جيلاً من الأساتذة والعلماء تلقوا العلم الأوربي بلغات أوروبا ليحلوا بعد عودتهم محل الأساتذة والأطباء والمدرسين في المدارس المصرية ليعلموا أجيالاً جديدة في العلوم والفنون التي درسوها في أوربا باللغة العربية، ويذكر الدكتور جمال الدين الشيال في هذا الصدد أن محمد علي لم يكن متطرفاً في النقل من الغرب، وإلا لأبقى أساتذة الغرب، وجعل التعليم في مدارسه باللغات الأوربية، ولكنه كان رجلاً حصيف الرأي بعيد النظر، فاحتفظ لمصر بقوميتها ولغتها وتراثها، ونقل إليها علوم الغرب رغم ما كلفته هذه الغاية الحميدة من مشقات وتكاليف([106]).

وكانت هيئة التدريس عندما أنشئت المدارس تتكون من أساتذة فرنسيين وإيطاليين، وأسباني واحد، وقد كانوا جميعاً لا يعرفون غير الفرنسية أو الإيطالية، وكان طلاب المدارس يجهلون اللغات الأجنبية، ولذلك تعذر على الطلاب تلقي العلم من الأساتذة مباشرةً بلغتهم الأجنبية، وكان لا بد أن تصل الدروس إلى هؤلاء الطلاب باللغة العربية، فاستعان كلوت بك ناظر مدرسة الطب بالمترجمين([107])، فكانوا ينقلون الدروس عن الأساتذة الأجانب إلى اللغة العربية، فكان الأساتذة يحاضرون باللغة الفرنسية ثم يترجمها المترجمون، وتصحح لغة الترجمة ثم تملى على الطلاب، ولم يشترطوا في هؤلاء المترجمين أو الوسطاء بين الأساتذة والطلاب أن

يكونوا ملمين بالمادة العلمية التي يقومون بترجمتها، بل كان يكفي إلمام المترجم باللغة التي يترجم منها واللغة التي ينقل إليها، وأن يكون من الكفاية بحيث يفهم الدروس التي يفسرها له الأستاذ([108])، وإمعاناً في الدقة والأمانة في الترجمة كان مسموحاً للأستاذ أن يراجع صحة ما ألقاه المترجم في حضرته بتكليفه أن يترجم له إلى الفرنسية ما قد عربه منها([109]).

ورغم ذلك المجهود الكبير الذي كان يبذله المترجمون فقد ظلت الشكوى من ضعف مستوى الطلبة العلمي في هذه المدارس تعزى إلى أن الدروس التي يلقيها الأساتذة الأجانب الذين لا يلمون باللغة العربية أو التركية، كان ينقلها إلى الطلاب مترجمون لا يعلمون شيئاً من معناها، كما أنه لا يمكن شرحها لهؤلاء المترجمين لعدم إلمامهم بهذا العلم([110]).

وفي مدرسة الطب كان كلوت بك نفسه يدرك ما يشوب هذه الطريقة من فساد، وحاول اتخاذ وسائل مختلفة لعلاج هذا الفساد والقضاء عليه، فبدأ يكلف هيئة المترجمين في المدرسة بترجمة الكتب الطبية إلى اللغة العربية، واشترك المترجمون في هذا العمل، وكان أول كتاب طبي ترجم في هذه المدرسة هو كتاب "القول الصريح في علم التشريح"، حيث ترجمه يوحنا عنحوري، وقام عدد من شيوخ الأزهر بتصحيحه وتقويم أسلوبه، كما ألحق كلوت بك بعض المترجمين بالمدرسة ليتلقوا العلوم الطبية، فيسهل عليهم بعد ذلك معرفة المصطلحات، وتفهم المواد التي ينقلونها عن الأساتذة والكتب التي يترجمونها، كما شجع طلاب المدرسة على تعلم اللغة الفرنسية ([111])، ورغم كل هذه المجهودات فإن هذه التجارب لم تؤتي ثمارها، فكانت البعثات، وكان إرسال الطلاب إلى الدول الأوربية لأنهم إذا تعلموا في بيئة أجنبية تعودوا الكلام بهذه اللغة، وأتقنوها، إلى جانب تعلم كل منهم للتخصص الذي يدرسه في أوروبا([112])، وعند عودتهم بدأ الباشا على الفور في تعيين عدد منهم مدرسين في المدارس التجهيزية والعليا من أجل تدريس العلوم التي درسوها في أوروبا إلى الأجيال الجديدة باللغة العربية ([113])، ويتجسد الدور الكبير للمبعوثين في مدرسة الطب فرغم جهود كلوت بك الكبيرة إلا أن مدرسة الطب المصرية لم تتبلور المدرسة الطبية في مصر إلى الظهور إلا بعد عودة البعثة الطبية الكبرى التي سافرت إلى فرنسا في العام1248هـ/1832م، فقد أصدر مجلس إدارة المدرسة – بعد عودة هؤلاء المبعوثين – لائحة تعيين الأعمال التي يناط بهم القيام بها كل منهم، إلى جانب اشتغالهم كمعيدين ومساعدين للأساتذة الأجانب، وأن يقوموا بترجمة الكتب التي يختارها لهم أعضاء مجلس المدرسة.

ومما هو بليغ الدلالة لدور هؤلاء المبعوثين في التدريس في المدارس التجهيزية والعليا تولي عدد من هؤلاء المبعوثين كمديرين لهذه المدارس، ففي العام1253هـ/1837م صدر قرار الاستغناء عن المدرسين الأجانب في مدرسة الهندسة، وعين بها من المدرسين المصريين محمد بيومي أفندي، ومظهر أفندي، وبهجت أفندي، وألحق بعضوية التدريس أربعة أعضاء آخرين من طلاب البعثات العائدين، بحيث أصبحت هيئة التدريس كلها في أواخر عصر محمد علي من المبعوثين الذين تلقوا علومهم الهندسية في فرنسا ([114]) والنمسا وانجلترا، ومنذ بداية إنشاءها في نبروه كانت هيئة التدريس في مدرسة الزراعة كلها من المبعوثين العائدين من أوربا، فتولى نظارتها يوسف بك الأرمني([115])، وحتى مدرسة الطب فقد تولى إدارتها منذ سنة 1261هـ/ 1845م الدكتور إبراهيم النبراوي، وهو أحد أعضاء البعثة الطبية الكبرى، ثم خلفه زميله في نفس البعثة الدكتور محمد الشافعي، وأما مدرسة الولادة فقد تولى إدارتها علي هيبة أفندي، ثم عيسى النحراوي أفندي، ثم أحمد الرشيدي أفندي، وهم جميعاً من أعضاء البعثة الطبية الكبرى إلى فرنسا ([116])، وهكذا فقد عمل الباشا تدريجياً على إحلال المبعوثين العائدين محل المدرسين الأجانب ([117])، كلاً في تخصصه، كما أن عودة هؤلاء المبعوثين كانت بداية لزيادة عدد المدارس الخصوصية مثل مدرسة الطوبجية، والإدارة الملكية، ومدرسة التاريخ والجغرافيا والزراعة ([118]).

ألم يكن ديوان المدارس منذ نشأته سواء في فكرته أو تكوينه (11 يناير 1836م) ديواناً يضم النخبة العليا من المبعوثين بهدف تطوير التعليم ومؤسساته([119])، فمنذ نشأته كان يضم

مصطفى بك مختار ناظراً، وكلوت بك (مدير مدرسة الطب)، ويعقوب بك أرتين (مدير مدرسة الإدارة)، وأسطفان أفندي (مدرس بمدرسة الإدارة)، ومسيو فارن Varin (مدير مدرسة الفرسان)، وحكاكيان أفندي، وكاني بك، ورفاعة الطهطاوي (مدير مدرسة الألسن)، ومحمد بيومي أفندي (مدير مدرسة المهندسخانة)، ومسيو لامبير (مدير مدرسة المناجم)، ومسيو هامون (مدير مدرسة الطب البيطري)، ومسيو دوزول سكرتيراً ([120])، ويتضح من هذه اللجنة مدى الدور الكبير الذي قام به المبعوثين في تطوير التعليم، فقد كان كل أعضاء اللجنة غير الأجانب وكاني بك من طلاب البعثات التي أرسلت إلي فرنسا، هكذا بدأت حركة تحديث التعليم منذ تكون هذا الديوان.

وبعد عام 1836 اخذت الحكومة في الاستغناء عن خدمات عدد كبير من المدرسين الأجانب العاملين في المدارس، وأخذت تفسح المجال للمعلمين المصريين خاصة المبعوثين الذين أخذوا في شغل أغلب مراكز التدريس في مدارس الحكومة([121]).

رابعاً: إمداد أجهزة الإدارة والحكم بالخبرات العلمية اللازمة:

فقد كانت إدارة الدولة قبل عودة هؤلاء المبعوثين تسير في جزء كبير من عملها على النظم العثمانية التقليدية، لذلك فقد تم إلحاق عدد كبير من المبعوثين العائدين بإدارة الدولة وأجهزتها الإدارية للمساعدة على تطوير وتحديث جهازها الإداري والصناعي، فقد كان الباشا يعي جيداً ضرورة تطوير جهازه الإداري على كافة المستويات، فمنذ البداية عهد الباشا إلى عدد من طلاب البعثات بضرورة دراسة فن الإدارة الملكية ([122])، ويحرص الباشا على ألا يكونوا من المصريين، فيتخير العناصر التي يصعب عليها الوجود في الحكم بدونه، فكانت العناصر الأرمينية، حيث تخصص أرتين بك وأسطفان بك في هذه الدراسة، ومن ثم ففور عودتهما يتم تعيين أرتين مديراً لمدرسة الإدارة الملكية، ثم سكرتيراً للوالي شخصياً، ثم تولى نظارة الخارجية منذ عام 1260ه/1844م خلفاً لباغوص بك([123]). ولكن الإبداع الأكبر لهؤلاء المبعوثين سوف يصل لقمته خلال عصر إسماعيل، فخلال عصر إسماعيل سوف تكون خبرتهم قد تطورت مما اكتسبوه من تعليم في فرنسا، وكذلك من خبرتهم في العمل في الجهاز الإداري للدولة، لذلك فقد أصبحوا في جلهم يحتلون المناصب العليا للإدارة في عصر إسماعيل،

والواقع أن كل أجهزة وأدوات الدولة قد تم تزويدها بدماء جديدة من هؤلاء المبعوثين من أجل تحديث العمل بها، ففي دار ضرب النقود تم تعيين أحمد أفندي في منصب معير الضربخانة بعد أن أمضى في فرنسا سبع سنوات ونصف تعلم خلالها عمليات سك النقود، حيث كانت دار ضرب النقود واحدة من أهم مؤسسات الدولة التي يرغب الباشا في تطوير عملها والسيطرة عليها ([124])، وفي العام 1248هـ/1832م تم تعيين أحمد أفندي حنفي وأمين أفندي الكرجي في المصانع الحربية، حيث تعلما في فرنسا عمليات هندسة المدافع، وأوكل إليهم بناء المدافع لإمداد الجيش المصري بها([125])، أما أحمد أفندي العطار فقد أسندت إليه عملية استنساخ الخرائط والصور الهندسية في مطبعة بولاق بعد أن درس المساحة في فرنسا لمدة سبع سنوات ([126])، وعند عودة علي أفندي الفرارجي أحد المبعوثين لأوروبا بعد أن تعلم صناعة الأطباق الصيني، فقد عملت الإدارة على قدم وساق لإنشاء مصنع لصناعة الأطباق الصيني تحت إشرافه، ولعل محمد مظهر أبرز مثال على دور هؤلاء المبعوثين في تنفيذ مشروعات الدولة وأهدافها، فقد تولى مظهر وظائف هندسية متنوعة وبعدها أسند إليه بناء منارة الإسكندرية الكبير القائم في شبه جزيرة رأس التين، وبعدها قام بتصميم وبناء حوض بناء السفن الحربية للأسطول المصري في الإسكندرية، كما شارك في بناء القناطر الخيرية، وكان محمد مظهر مساعد مسيو موجيل مهندس ومصمم القناطر الخيرية، التي صُنفت كمعجزة هندسية عالية في وقتها، وتتجسد في مثل هذه الأعمال التي أسندت إلى هؤلاء المبعوثين رغبة الدولة في تطوير وتحديث أنظمتها الإدارية والزراعية والصناعية([127]).

ويشكل دور هؤلاء المبعوثين في عصر إسماعيل مرحلة النضوج الإداري، حيث شغلوا نظار كل النظارات تقريباً خلال عصر إسماعيل، فنشير مثلاً إلي حماد عبد العاطي باشا الذي

كان ضمن بعثة الأنجال في عام1260ه/1844م، حيث كان من خريجي مدرسة المهندسخانة في بولاق، ثم ألحق بالمدرسة المصرية في باريس، وعندما اظهر نبوغاً علمياً كبيراً فقد تم ألحاقه بمدرسة متز الحربية ثم بالجيش الفرنسي، ولما عاد إلي مصر قام بعدد عظيم من الأعمال الهندسية، ثم اشتغل قاضياً ومستشاراً بالقضاء المختلط. أما علي إبراهيم باشا وهو من خريجي مدرسة المدفعية بطرة، حيث ألتحق ببعثة 1260ه/1844م وكان من المتفوقين في باريس ثم ألحق بمدرسة متز ثم بالجيش الفرنسي، وبعد عودته تقلد عدد كبير من الوظائف الإدارية إلى أن عين ناظراً للمعارف، ثم ناظر للحقانية في عام1298ه/1882م، أما على باشا مبارك وحياته الدراسية والإدارية فمعروفة للجميع، ومحمد شريف باشا أبو الدستور في مصر([128])، والذي تقلد عدد كبير من المناصب الرفيعة أيضاً.

على العموم فإن إن هؤلاء المبعوثين الذين اختيروا من صميم الريف صاروا فيما بعد القادة المفكرين، والعلماء الناصحين، والساسة القادرين على خلق أجيال جديدة من أبناء الشعب من أجل تمدن وتحضر المجتمع وأفكاره، لقد بعث هؤلاء بأعمالهم العلمية في المجتمع روح فكرية جديدة، كما نهضوا باللغة العربية نهضة عظيمة، فدبت فيها روح الحياة، وأخذت تستعيد سابق قوتها بترجمة كثير من الكتب العلمية في الطب والهندسة والميكانيكا والرياضة والقانون والجغرافيا والتاريخ والاجتماع، وقد بدأت اللغة العربية منذ ذلك الحين تساير ركب الحياة العلمية، وتعني بالمصطلحات العلمية التي زودها بها هؤلاء المبعوثون الذين عكفوا على الكتب العربية القديمة ينقبون فيها عما عساه يصلح للحضارة الحديثة، فإن استعصى عليهم شيء عربوه، أو وضعوا له كلمات تناسبه.

لقد كان هؤلاء المبعوثون ومترجماتهم احتكاكاً بين علوم ومعارف عالمين مختلفين كل الاختلاف، فقد غذت هذه المترجمات مؤسسات التعليم والثقافة في مصر بالكثير من ينابيع الحضارة والثقافة الأوربية، حتى وإن ارتبطت تلك المترجمات بأهداف محمد علي الإصلاحية، إلا أنها أثرت بطريق غير مباشر في التكوين الثقافي لهؤلاء المبعوثين وطلابهم في مصر الذين كونوا جيلاً من المصريين تميز بشخصية متفتحة استطاعت أن تستوعب نظم الغرب الأوربي وعلومه، وبذا أسهموا في غرس البذور الأولى للنهضة المصرية في القرن التاسع عشر.

وعلى الرغم من ذلك فقد كان نتاج ارتباط البعثات العلمية بالدولة هو خلق أدوات عمل أكثر منه خلق مبدعين ومفكرين، ففور عودة كل منهم كان يتم تعيينهم في الجهاز الإداري للدولة وسرعان ما يتحول كل منهم مع العمل البيروقراطي إلي موظفين بدرجة أطباء أو مهندسين وغيرهم، ولم تُعن الدولة بحث هؤلاء على تخطي المعرفة التي وفدوا بها وإبداع المزيد من هذه المعرفة وإنتاج نظريات وأفكار جديدة، بل كان جل هدفها هو غرس هذه المعرفة في اطارها إلي طلابهم، وفي النهاية تصبح هذه المعرفة متهالكة بالية في حين يكون الغرب قد أنتج مزيداً من المعرفة الجديدة لتتزايد الفجوة من جديد بيننا وبينه ولنرسل المزيد من المبعوثين إليه!!.

وكانت المشكلة ولا زالت أننا أصبحنا منذ ذلك الحين فصاعداً حتى اليوم أسرى هذه المعرفة الغربية التي نرغب دائماً في التزود بها دون التدخل لإنتاجها، وتحول النقل عن الغرب إلى ولع أكثر منه أداة معرفيه للتطور والإبداع ومن أجل ذلك أصبح العقل المصري منذ ذلك الوقت مغرب المعرفة أكثر منه منتج ثقافة ومعرفة.

[1] - عبد الكريم مدون: فرنسا ونظرية التحديث في مصر في عهد محمد علي، منشور ضمن أبحاث "مصر في عهد محمد علي، إصلاح أم تحديث"، تحرير رءوف عباس، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2000، ص 447.
[2] - أنور عبد الملك: نهضة مصر تكون الفكر والأيديولوجية، في نهضة مصر الوطنية (1805 – 1892)، الهيئة العامة للكتاب، 1983، ص 198.
[3] - مايسة علي محمد: البعثات التعليمية في القرن الـ 19 وأثارها الثقافية والاجتماعية والسياسية على المجتمع المصري، رسالة دكتوراه، جامعة عين شمس، كلية البنات، القاهرة، 1981، ص 9.
[4] - زينب محمد فريد: من تاريخ التعليم، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1975، ص 37.
[5] - علي مبارك، الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة، الطبعة الأولي، مطبعة بولاق، القاهرة، 1306هـ، ص38.
[6] - جمال الدين الشيال: تاريخ الترجمة والحركة الثقافية في عصر محمد علي، دار الفكر العربي، القاهرة، 1951، ص 33.
[7] - - أحمد عزت عبد الكريم، تاريخ التعليم في مصر في عصر محمد علي، دار النهضة المصرية، القاهرة، 1938، ص93.
[8] - محمد رفعت الإمام: تاريخ الجالية الأرمينية في مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1999، ص 174؛ ص 175.
[9] - معية تركي: دفتر 40، وثيقة 291، بتاريخ 18رجب 1245هـ/1829م.
[10] - معية تركي: دفتر 62، وثيقة 557، بتاريخ 28 ذي الحجة 1250هـ/1834م.
[11] - جمال الدين الشيال: مرجع سبق ذكره، ص 36.
[12] - أحمد عزت عبد الكريم، مرجع سبق ذكره، ص 435، 436.
[13] - محمد محمود السروجي، الجيش المصري في القرن التاسع عشر، دار المعارف، القاهرة، 1967، ص19.
[14] -كان عدد طلاب هذه البعثة ثلاثة وأربعين طالباً، ثم ألحق بهم إمامها الشيخ رفاعة الطهطاوي، وقد رجع منهم خمسة طلاب قبل إتمام تعليمهم لضعف صحتهم ومرضهم.
[15] - أحمد عزت عبد الكريم، مرجع سبق ذكره، ص 30.
[16] -أنور عبد الملك، مرجع سبق ذكره، ص 132.
[17] - مايسة علي محمد، مرجع سبق ذكره، ص 41.
[18] - عايدة إبراهيم نصير، حركة نشر الكتب في مصر في القرن التاسع عشر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1994، ص 294.
[19] - محمد فؤاد شكري، بناء دولة محمد علي، دار الفكر العربي، القاهرة، 1948، ص 594.
[20] - كلوت بك: لمحة عامة إلى مصر، ترجمة محمود مسعود، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، 2011، ص618.
[21] - مايسة علي محمد، مرجع سبق ذكره، ص 10.
[22] -زكي صالح، البعثات العلمية في القرن التاسع عشر، الجزء الأول، مطبعة وزارة التربية والتعليم، القاهرة، 1959، ص 37، 38.
[23] - أنور عبد الملك، مرجع سبق ذكره، ص 129.
[24] - جاك تاجر، حركة الترجمة بمصر خلال القرن التاسع عشر، دار المعارف، القاهرة، 1945، ص27.
[25] - عبد الحميد البطريق عصر محمد علي ونهضة مصر في القرن التاسع عشر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1999، ص 43.
[26] - معية تركي: محفظة 50، وثيقة 20، بتاريخ 15 جمادى أول 1248هـ/1832م.
[27] - أحمد عزت عبد الكريم، مرجع سبق ذكره، ص90؛ مايسة علي محمد: مرجع سبق ذكره، ص 14.
[28] - كلوت بك: مرجع سبق ذكره، ص606؛ جمال الدين الشيال: مرجع سبق ذكره، ص 99.
[29] - كان محمد علي باشا قد شكل لجنة من سليمان باشا الفرنساوي وعثمان نور الدين باشا وأحمد أفندي المهندس من أجل اختيار الطلاب وإعدادهم لإرسالهم إلى أوروبا، وبالتالي فقد كان على عبد الرحمن الرافعي: عصر محمد علي، دار المعارف، ط 5، القاهرة، 1989، ص 386.
[30] - هنري لورنس وآخرون: الحملة الفرنسية في مصر بونابرت والإسلام، ترجمة بشير السباعي، سينا للنشر، القاهرة، 1995، ص 626.
[31] - عمر طوسون: مرجع سبق ذكره، ص 26، 28.
[32] - مايسة علي محمد: مرجع سبق ذكره، ص 15، 18.
[33] - أحمد عزت عبد الكريم: مرجع سبق ذكره، ص 93.

[34] - جمال الدين الشيال: مرجع سبق ذكره، ص 39.
[35] -محمد رفعت الإمام: مرجع سبق ذكره، ص 176.
[36] - عبد الحكيم عبد الغني قاسم، تاريخ البعثات المصرية إلى أوروبا في عصر محمد علي، مكتبة مدبولي، القاهرة، 2010، ص126.
[37] - عبد الرحمن الرافعي: عصر محمد علي، مرجع سبق ذكره، ص 409.
[38] - عمر طوسون: مرجع سبق ذكره، ص 407.
[39] - أنور عبد الملك: مرجع سبق ذكره، ص 131.
[40] - كلوت بك: لمحة عامة إلى مصر، ترجمة محمود مسعود، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، 2011، ص606.
[41] - عمر طوسون: مرجع سبق ذكره، ص 25.
[42] - عبد الرحمن الرافعي: مرجع سبق ذكره، ص 474.
[43] - أنور عبد الملك: مرجع سبق ذكره، ص 132.
[44] - عمر طوسون: مرجع سبق ذكره، ص 26.
[45] - نفس المرجع، ص 356.
[46] - مايسة علي محمد: مرجع سبق ذكره، ص 54.
[47] - عمر طوسون، صفحة من تاريخ مصر في عصر محمد علي الجيش البري والبحري، مكتبة مدبولي، الطبعة الثانية، القاهرة، 1996، ص 134..
[48] - أنور عبد الملك: مرجع سبق ذكره، ص 136.
[49] - جاك تاجر: مرجع سبق ذكره، ص 70.
[50] - مايسة علي محمد: مرجع سبق ذكره، ص 60.
[51] - عمر طوسون: مرجع سبق ذكره، ص 421، 449.
[52] - معية تركي: دفتر 5، ص 10، وثيقة 469، بتاريخ 15 ربيع ثاني 1271هـ/1854م.
[53] - معية تركي: دفتر 5، ص 63، وثيقة 469، بتاريخ 15 ربيع ثاني 1271هـ/1854م.
[54] - عمر طوسون: مرجع سبق ذكره، ص 496.
55 - عبد الرحمن الرافعي، عصر إسماعيل، الجزء الأول، دار المعارف، الطبعة الثالثة، القاهرة، 1981، ص49.
56 - أنور عبد الملك: مرجع سبق ذكره، ص 135.
57 - عبد الرحمن الرافعي، عصر إسماعيل، المرجع السابق، ص74.
58 - جاك تاجر: مرجع سبق ذكره، ص 80.
[59] - أنور عبد الملك: مرجع سبق ذكره، ص 136.
[60] - مايسة علي محمد: مرجع سبق ذكره، ص 96.
[61] - يكفي أن نشير هنا إلى أن العدد الأكبر من زعماء الحركة الوطنية في مصر كانوا قد أرسلوا للدراسة في فرنسا على نفقة ذويهم ومنهم مصطفي كامل، ومحمد فريد، وعدلي يكن، ومحمد حسين هيكل وغيرهم وأن العدد الأكبر منهم قد درس القانون.
[62] - عبد الحميد البطريق: مرجع سبق ذكره، ص608.
[63] - معية تركي: دفتر 50، وثيقة 65، بتاريخ 26 جمادى ثاني 1248 هـ/1832م.
[64] - معية تركي: دفتر 62، وثيقة 541، بتاريخ 21 ذي الحجة 1250 هـ/1834م.
[65] - معية تركي: محفظة 54، وثيقة 480، بتاريخ 14 ذي الحجة 1250 هـ/1834م
[66] - معية تركي: دفتر 3، وثيقة 284، بتاريخ 20 ذي الحجة 1251هـ/1835م.
[67] - عبد الرحمن الرافعي، مصر في عصر محمد علي، مرجع سبق ذكره، ص380.
[68] - معية تركي: محفظة 53، وثيقة 376، بتاريخ 22 ربيع أول1249هـ/1833م..
[69] - محافظ الأبحاث، محفظة 58، وثيقة 518، بتاريخ 1245 هـ/1829م.
[70] - معية تركي: محفظة 40، وثيقة 376، بتاريخ 1246 هـ/1830م.
[71] - عايدة إبراهيم نصير: مرجع سبق ذكره، ص250.
[72] - هذا الكتاب الأخير طبع في بولاق سنة 1249هـ/1834م، ثم أعيد طبعه مرة ثانية سنة 1259هـ/1843م، وثالثة سنة 1270 هـ/1853م في مطبعة المهندسخانة، انظر مايسة علي محمد: مرجع سبق ذكره، ص 212.
[73] - معية تركي: محفظة 50، وثيقة 20، بتاريخ 1248هـ/1832م.
[74] - جاك تاجر، مرجع سبق ذكره، ص 59.
[75] -جمال الدين الشيال، مرجع سبق ذكره، ص 94.

[76] - عايدة إبراهيم نصير، مرجع سبق ذكره، ص 250.
[77] - خديوي تركي، محفظة 779، ص 177، وثيقة 530، بتاريخ 1248هـ/1832م.
[78] - عايدة إبراهيم نصير، مرجع سبق ذكره، ص 293.
[79] - جمال الدين الشيال، مرجع سبق ذكره، ص 53.
[80] - جاك تاجر، مرجع سبق ذكره، ص 61.
[81] -كلوت بك، مرجع سبق ذكره، ص608.
[82]- ديوان مدارس تركي: دفتر 2109، ص 83، وثيقة 65، بتاريخ 1261 هـ/1845م.
[83] - جمال الدين الشيال، مرجع سبق ذكره، ص 24.
[84] - عايدة إبراهيم نصير، مرجع سبق ذكره، ص 294.
[85] - جمال الدين الشيال، مرجع سبق ذكره، ص 52.
[86] - عايدة نصير: مرجع سبق ذكره، ص 248.
[87] - معية تركي: محفظة 53، وثيقة 376، بتاريخ 22 ربيع أول 1249 هـ/1833م.
[88] - سامي خشبة: الأهرام، العدد 4176، بتاريخ 13/ 4/ 2001.
[89] - أنور عبد الملك، مرجع سبق ذكره، ص 144.
[90] - عايدة إبراهيم نصير: مرجع سبق ذكره، ص 279.
[91] - المرجع نفسه، ص 281.
[92] - كلوت بك: مرجع سبق ذكره، ص 623.
[93] - جمال الدين الشيال، مرجع سبق ذكره، ص 24.
[94] - كلوت بك: مرجع سبق ذكره، ص 531.
[95] - فقد بذل كلوت بك جهداً عظيماً لمحاربة مرض الجدري الذي كان يقضي على حياة نحو ستين ألاً من الأطفال في مصر في كل عام، فأشار على الحكومة باستعمال التطعيم ضد هذا المرض، وترجم أحمد حسن الرشيدي "رسالة كلوت بك رسالة عن تطعيم الجدري"، أحمد عزت عبد الكريم: مرجع سبق ذكره، ص 292؛ جمال الدين الشيال: مرجع سبق ذكره، ص55.
[96] - عايدة إبراهيم نصير: مرجع سبق ذكره، ص 297.
[97] - جمال الدين الشيال: مرجع سبق ذكره، ص172.
[98] -عبد العظيم محمد سعودي: تاريخ تطور الري في مصر (1882 – 1914م)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2001، ص 17.
[99] -تخصص محمد مظهر أفندي ومحمد بيومي أفندي في علم الهيدرولك، وهو علم إقامة السدود والقناطر على تيارات المياه المندفعة، مما يوضح مدي إدراك الإدارة في مصر لتخصص كل مبعوث لتلبية احتياجاتها.
[100] - جمال الدين الشيال: مرجع سبق ذكره، ص110؛ ص 111.
[101] - نفس المرجع، ص 224.
[102] - محمد فؤاد شكري: مرجع سبق ذكره، ص 118.
[103] - جاك تاجر، مرجع سبق ذكره، ص 98.
[104] - أحمد عزت عبد الكريم، مرجع سبق ذكره، ص 53.
[105] - جاك تاجر، مرجع سبق ذكره، ص 98..
[106] - جمال الدين الشيال، مرجع سبق ذكره، ص 33.
[107] - جاك تاجر، مرجع سبق ذكره، ص 24.
[108] - مايسة علي محمد: مرجع سبق ذكره، ص 102.
[109]- كلوت بك: مرجع سبق ذكره، ص 620.
[110]- جاك تاجر، مرجع سبق ذكره، ص 24، 25.
[111]- جمال الدين الشيال، مرجع سبق ذكره، ص 19، 20.
[112]- نفس المرجع، ص 22.
[113]- معية تركي: محفظة 77، وثيقة 32، بتاريخ 10 ذي القعدة 1251 هـ/1835م.
[114] - جمال الدين الشيال، مرجع سبق ذكره، ص 24.
[115] - محمد رفعت الإمام، مرجع سبق ذكره، ص 174.
[116] -أحمد عزت عبد الكريم، مرجع سبق ذكره، ص 302، 303.
[117] - معية تركي: محفظة 1، وثيقة 186، بتاريخ 17 ذي الحجة 1250 هـ/1834م.
[118] - سامي سليمان، مرجع سبق ذكره، ص 281.
[119] - أنور عبد الملك، مرجع سبق ذكره، ص 156.

[120] - أحمد عزت عبد الكريم، مرجع سبق ذكره، ص 93.
[121] - نفس المرجع ، ص 121.
[122] - محمد رفعت الإمام، مرجع سبق ذكره، ص 176.
[123] - عمر طوسون، مرجع سبق ذكره، ص 35.
[124] - معية تركي: محفظة 66، ص 100 وثيقة 409، بتاريخ 1251هـ/1835م.
[125] - معية تركي: محفظة 48، وثيقة 83، بتاريخ 20 رجب 1248هـ/1832م.
[126] - معية تركي: محفظة 54، وثيقة 480، بتاريخ 14 ذي الحجة 1250 هـ/1834م.
[127] - أحمد عزت عبد الكريم، مرجع سبق ذكره، ص447.
[128] - يمكن مراجعة دور البعثات في تطور تلك النخبة من خلال كتاب، عبير حسن عبد الباقي، طبقة الأفندية في مصر خلال النصف الأول من القرن العشرين، مكتبة مدبولي، القاهرة، 2005، ص30.